المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكّمة / العدد الثامن و الثلاثون / ربيع / ٢٠٢٢

الكتابة فعل أخلاقي	عمر شبلي
سلطة العرش واختلاق الوهم في رواية سلطان وبغايا	أ.د. عبد القادر فيدوح
تواصليّة الخطاب وتشكّل الأنا في قصيدة "خريف العمر"	د.يسرى يحيى شامي
تحدّيات تعليم اللّغة العربيّة من بعد لغير الناطقين بها	د. ليال مرعي / د.بهيا ظهران
واقع السّلطة في لبنان	د. يوسف زلغوط
الفقر والعوز بأرقام مرعبة	نزيهة محمّد الحسن
أبعاد القصيدة العمريّة " العنقاء" في ضوء شعريّة الانزياح	سامي التّراس
الشّاعر العبّاسي "ديك الجن" حياته وشعره	أيمن حامد عثمان
الملامح الجديدة للمعلّم والمتعلّم في ظلّ التّعليم البعدي	كفاح بيطار
الكرم عند العرب في العصر الجاهلي	علي أحمد اسماعيل
معوّقات تطبيق نموذج التّعليم الإلكتروني عن بعدٍ جراء جائحة كورونا	ميشال كميل عون
أثر استخدام تكنولوجيا التّعليم عن بعد على التّحصيل الدّراسي	إيليان أبي سليمان/ أ.د نمر فريحة
التّوجيه المهني في لبنان دوره في التّأثير على تصوّرات المتعلّمين	كارولين كربلا / أ.د نمر فريحة
أزمة انهيار سعر صرف الليرة وأثره على التنمية الاجتماعية في لبنان	حسن محمد بيز
دراسة تحليليّة لأسئلة الامتحانات الرسميّة لمادّة الفيزياء	إيمان عباس
قرأت في العدد الماضي	رانية مرعي
أقلام واعدة	هادي فقيه/ جنان ابراهيم
Al Hallaj: The Execution of an Author	Dr. Amal Tawbe

- موقف "المنافذ الثقافية"
من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدّي

المنافذ الثّقافيّة
مجلة ثقافيّة فصليّة محكَّمة تُعنى بأحوال الثّقافة والفكر والأدب

العدد الثامن والثّلاثون - ربيع 2022

رئيس التّحرير
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التّحرير
أ. د. دريّة كمال فرحات

المدير المسؤول: علي حمود

الهيئة الثّقافيّة والإداريّة

د. هالة أبو حمدان	أ.د. عماد هاشم	د. عـلي أيـوب
أ.د. عيدا زين الدين	أ.د. زهور شتوح (الجزائر)	أ.د. نـدى الرمـح
د. دلال مهنا الحلبي	د. رضا العليبي (تونس)	أ.د. جمانة أبو علي
د. منال شرف الدين	د. ندى الرمح	د. سمية طليس
د. ربى شوكت محسن	أ. رولا الحاج حسن	أ. حكمت حسن
أ. زينب راضي	أ. رئيفة الرّزّوق	أ. مـروان درويش
أ. سـوزان زعيتر	أ.رانية مرعي	

تدقيق لغوي د. فاطمة البزال. أ. سامي التراس/ د. إيمان صالح **مسؤولة القسم الانكليزي**

اللجنة المحَكّمة

أ.د. ديزيريه سقّال	أ.د. حسن جعفر نور الدين	أ.د. محمد فرحات
أ.د. فـؤاد خـليل	أ.د. لارا خالد مخول	أ.د. علي حجازي
أ.د. جـمال زعيتر	أ.د. مها خير بك ناصر	أ.د. محمد عواد
أ.د. عـائشة شكر	أ.د. أحمد رباح	أ.د. يوسف كيال
أ.د. مـاغي عـبيد	أ.د. سعيد عبد الرحمن	أ.د. دريّة فرحات

تصميم المجلة وإخراجها: دار النهضة العربيّة

ISSN 2708-4302

موقع المجلة الإلكتروني – www.al-manafeth.com

تطلب المجلة من دار النهضة العربية – بيروت – شارع جامعة بيروت العربية
للمراسلات: 270 833 1 00961
darnahdainfo@gmail.com

الاشتراكات السنوية:
لبنان للأفراد 100 ألف ليرة لبنانية – للمؤسسات 150 ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربية:
للأفراد 100 دولار – للمؤسسات 200 دولار
للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

الكتابة فعل أخلاقيّ
عمر شبلي .....
سلطة العرش واختلاق الوهم في رواية سلطان وبغايا
أ.د. عبد القادر فيدوح .....
تواصليّة الخطاب وتشكّل الأنا في قصيدة «خريف العمر» للشاعر عبد النبي بزي
د.يسرى يحيى شامي .....
تحدّيات تعليم اللغة العربيّة من بعد لغير الناطقين بها – صفوف القراءة النشطة أنموذجًا
د. ليال مرعي / د.بهيا ظهران .....
واقع السّلطة في لبنان
د. يوسف زلغوط .....
الفقر والعوز بأرقام مرعبة
نزيهة محمّد الحسن .....
أبعاد القصيدة العمرية « العنقاء» في ضوء شعريّة الانزياح
سامي التّراس .....
الشّاعر العبّاسيّ «ديك الجنّ» حياته وشعره
أيمن حامد عثمان .....
دراسة تحليليّة لأسئلة الامتحانات الرسميّة ما بين 2102–8102 لمادّة الفيزياء في الصف الثالث ثانوي علميّ (فرع علوم حياة) ومدى تضمّنها لمهارات التفكير العليا
إيمان عباس .....
أثر استخدام تكنولوجيا التّعليم عن بعد على التّحصيل الدّراسيّ في التّعبير الكتابيّ في الصّفّ الأساسيّ الخامس من مرحلة التّعليم الأساسيّ.
ايليان أبي سليمان / أ.د. نمر فريحه .....
التوجيه المهني في لبنان دوره في التأثير على تصوّرات المتعلمين واختياراتهم الدراسية والمهنية المستقبلية في مرحلة التّعليم الثّانوي
كارولين كربلا – أ.د. نمر فريحه .....
الإشراف التّربويّ الإلكترونـيّ: بين الجدوى واللّاجدوى
لور مراد.....
الملامح الجديدة للمعلّم والمتعلّم في ظلّ التّعليم البعديّ
كفاح بيطار .....
الكرم عند العرب في العصر الجاهليّ
علي أحمد اسماعيل .....
أحكام الغصب في القرآن الكريم – نماذج تطبيقية
أ.د. عبد المنعم أحمد حسين .....

معوّقات تطبيق نموذج التّعليم الإلكترونيّ عن بعدٍ جراء جائحة كورونا – بين الواقع والمأمول (دراسة على عينة من معلمي مدارس محافظة النّبطيّة جنوبي لبنان)
ميشال كميل عون .....
أزمة انهيار سعر صرف الليرة وأثره على التنمية الاجتماعية في لبنان
حسن محمد بيز.....
قرأت في العدد الماضي
رانية مرعي .....
جريمة شرف (شعر)
رانية مرعي .....
أقلام واعدة
هادي فقيه/ جنان نادر ابراهيم .....

1- Al Hallaj: The Execution of an Author
Dr. Amal Tawbe .....
2- Morrison's Beloved: Scars and Wounds Telling Different Stories
Dr. Amal Tawbe .....
3-The Significance of Fairclough's Model of Language Learning in Class-room
Nada Youssef El-Khansa .....

سلطة العرش واختلاق الوهم في رواية سلطان وبغايا

أ.د. عبد القادر فيدوح – الجزائر

- تشخيص السلطة الذكورية **وتسبيب الاعتلال:**

مازالت المرأة تبحث بأقصى غاياتها فيما هو **خلف أبواب الغرف المغلقة** بلغة التواصل الحميمي[1] التي تشخص بؤرة الأنوثة في مركزيتها، بحسب النسق المرجعي الفظّ، والثقافة الراجعة الصلدة، التي نصبت للذكورة سلطتها على الجسد الحميمي المفعم بالاجتذاب الشبقي Eroticism، وما فتئت تحاول إخراج هذه النمطية من تراتبية سلطة الذكورة؛ بالمستوى الذي يجعلها في مواجهة خطاب التنميط الذكوري بأشكاله المهيمنة؛ الساعية إلى احتواء الجسد برغبة الاشتهاء الحميمي في «غرفة تخص المرء وحده» بحسب تعبير فرجينيا وولف Virginia Woolf.

وفي ضوء ذلك جاءت رواية «سلطان وبغايا»[2]؛ لتكشف واقعية الذكورة في ربطها بالنفوذ والاستحكام؛ تحت وقْع سلطة الإغواء بشتى السبل، وبما يُحمل على الجذب بالاستهواء، والرغبة في تحررها من النص الوصفيِّ لها، بوصفها منارة الكلمات المتأنقة، وصورةً نضرةً بالتمثيل المغلوط في معالم الكشف الإبداعي الخيالي، الذي لا يعكس حقيقة المرأة في واقعها الاجتماعي والثقافي، كما هو الشأن بالنسبة إلى الأرض الخصبة التي يوجد في داخلها مكنونات لثروة مهمة، تعد من أهم ثروات بناء المجتمع، وقِوامة ينبغي التعرف إليها في العمق، والتحكم في استثمار سَعَتها الإنسانية، وامتدادها الفكري، وثروتها الاجتماعية؛ بما هو أجدى نفعًا، لا أن نقف عند مكنون الجسد الشبقي في رسمها لدى القلوب المستهامة، أو العقول المخاتلة، والسلوكيات المواربة؛ كما يخدع المداهن ضحاياه بالاحتيال والتضليل، شأن الشخصية الرئيسة «سلطان زعتر» بما يشير إليه الدال القرائني بالطِّيب في مسمى [زعتر]، وبالنفوذ في السيادة في مسمى[سلطان] نظير ما يوفره من إثارة لبغايا، يرضين غروره استتباعًا؛ مقابل عطايا عابرة؛ ليس إلا، وهو الحاضر في السرد بقوة، الغائب تفاعليا في أحداث الرواية بتقنية التواري الفني

(1) بحسب تعبير الكاتبة جميلة بكوش في كتابها، معالم النقد الثقافي في الجزائر، دار خيال – الجزائر– 2021، ص 115، وما بعدها.

(2) تُعدّ الروائية هدى عيد من الأصوات المبادرة في المشهد الثّقافيّ اللّبنانيّ. أسهمت بمقالات نقدّية وثقافيّة، في العديد من الدّوريّات، والمجلّات المحكّمة. لها ثمانِ روايات، وبعض الإسهامات القصصيّة، حائزة جائزة مؤسّسة الحريريّ للتّنمية البشريّة المستدامة عن روايتها «حبّ في زمن الغفلة»، وجائزة المطران الأب سليم غزال للسّلم والحوار الوطنيّ اللّبنانيّ، عن أعمالها الرّوائيّة، بالإضافة إلى عدد من الجوائز الوطنيّة الأخرى.

عمدا من الروائية، وقد أجادت هدى عيد في إخفائه، بوصفه أيقونة لكل بغي، ووسيطا ماديا بين الحقيقة والتوهم، والاستبداد والعدل، والظلم والإنصاف، وبين الحفر في الذاكرة وطمرها، لتعطي انطباعا على أن «سلطان زعتر» يردف معه كل المتناقضات، وتتوالى في ظله كل الموبقات؛ مقابل صورته الإيجابية في العظة التي يتركها أثره الوضيع في نظر الأنوثة، في حين هو يقدم درسًا لحال الواقع في مجتمعاتنا بتأثيرات مختلفة من دون إعطاء حلول لها إلا فيما نستشفه من مجازات المضمر في النص.

ترسم لنا هدى عيد شخصية «سلطان زعتر» بما لا يدع مجالا للشك في وصم القيم بفعل منجزاته، التي تنتج – على إثرها – سوءات بإخفاقات أخلاقية؛ حين تقوم الذات الصاغرة بنشر نقائصها في ضحاياه المتنوعة، مصدرها الغريزة، وهي حالة لمحاكاة متواترة في كل المجتمعات؛ بصورة تعكس القوة الناعمة حين تمارس نشاطها خارج مقولات القيم؛ بالنظر إلى أن «سلطان» محكوم بتجارب الفشل التي من شأنها أن تؤول بالمتلقي إلى الرشاد في تحكيم العقل.

يبدأ الموقف الإنساني كما تمليه تجارب الحياة في وَجاهتها من التساؤل عن جدوى الإسهام الإيجابي، والمشاركة الفاعلة التي من شأنها أن تؤمن نصيبًا وافرًا من القيم؛ غير أن التمادي في الخطيئة يقود صاحبها إلى عدم التخلي عن الرغبة التي تشبع الغرائز بكل صفاتها، والاندفاع في طلبها بكل السبل، كما في هذا الحوار الذي دار بين إحدى زوجاته، التي وصفت حالتها لزهية ابنة أخيه حين نعتت لها حالة المعاناة بحرمانها من الحق الطبيعي إلى ما يمكن أن تعلو فيه إلى مكانة الأم؛ بعد حمْلها منه وإجبارها بإجراء عمليتيْ الإجهاض «على يد طبيب سُهاد تلك وبحضورها مزقا رحمي، وجعلاني أرضا بوارًا رغم الخصوبة التي كان يرشحُ بها جسدي، ورغم الجمال الذي كان يهيم في أنحائي – ماذا؟ تسألين إن كنت زوجته؟ بديهي أني كنت زوجته، لكنه تزوجني بعد ذلك حبيبتي لكي يأتي على ما تبقى مني، وليسلبنَي قصر والدي لا لأنه يحبني، الشيطان لا يحب يا صغيرتي، يغويك ويتركك أشلاء تنهشها ذئاب المكان – تريدين الحكاية، أنت توجعين قلبي أيتها الصبية، هل تدركين ذلك؟»[1] ؛ وفي مثل هذه الحال تقاس أهمية القيم في تشخيص الذات حين تكون بيِّنةً في حياة الآخر حتى لا يتسبب له في الدمار المعنوي، قبل الدمار الجسدي، أو النفسي؛ وهي الصورة التي تقدم تشخيصا لوضع الذكورة الدَّعيَّة بما تثيره من أسئلة خلقية، وانحلال القيم الاجتماعية؛ غالبا ما

(1) سلطان وبغايا، ص 21، 22

يكون مبعثها تفكيك البنية الذهنية لتشخيص الذات المهيمنة؛ حين لم تعد لها أيَّ فاعلية في الحياة، أو مصداقية في القيم؛ مما يسبب الوَصْبَ، وبكل ما تعنيه صفات القمع المنظم بالتغذية الراجعة، والعنف الرادع باستخدام الصرامة المستبدة، أو استخدام الضغط بالإكراه، شأن شخصية «سلطان زعتر» الذي كان يتسم بالذكورة المتسلطة في غياب الأنظمة الخلقية، وفقدانها في الروح الجماعية للمجتمع، بعد احتجاب القيم الأخلاقية، وتواري الفضائل الإنسانية، التي من شأنها أن تهدئ من روعة حالات رعونة الذكورة الصلفة، كما وصفته شخصية سمير جمال لزهية» كنت التقيته في مناسبات ثقافية عامة .... يتحدث عن القيم ومصالحة الأنفس مع ذواتها والأجيال المتعاقبة، وحساب التاريخ، والضمائر التي لا تموت .... حنى سلطان رأسه، ونظر إلي بحدة، وقد التمعت عيناه، وهو يسألني: تعتقد أني سأقيم في الجحيم يوما ما؟ .... ولكن قل لي: لمَ ورثنا من آدم الخطيئة والعصيان، ولم نُحاسب على ما أُورثناه بالقوة؟»[1].

لا مجال للشك في أن ما تتضمنه الذكورة من مرايا عاكسة للضمير الجمعي، تستمد مرجعيتها من الدور الفاعل للمحاكاة المتواترة، وبالاستناد إلى التبعية المشتركة، والاتكالية التي تطالبنا بالإذعان للموروث؛ الدَّعيِّ منه، كما في حال اعتراف سلطان زعتر بتوارث الخطيئة في خطابه المعياري، الذي أربك كيانه من دون هداية؛ حتى لو كان قادرا على منح الاعتراف والفوز به؛ إلا بشرط أن يتعرض لإرباك مساره بفعل شيء لا يكون من ذاته، أن يتعرض إلى إزاحة عن المركز [ويخفق] في إنجاز هوية الذات»[2]، وهو ما لم يحصل مع سلطان زعتر، الذي رجح الغريزة الشهوانية على السجية الطبيعية؛ إذ وحدها الغريزة العاطفية يمكن أن تبين سريرة حب التملك والاستئثار بالشيء، والميل إلى النفس التائقة، وطوية مشاعرها الدفينة؛ سعيا إلى صنع كينونتها بحسب نظرة التباين الأفلاطونية، التي تحدد مسار التناقض الإنساني بين ما ينبغي أن يكون، وما يدفعه إلى الانتهاك للإنسانية بالاستطالة والبغي. وفي غياب الروح المسئولة تنشأ الدافعية تحت تأثير الاشتهاء باللذة، وحب التملك بالسلطة، واستعمال السطوة بشتى أنواعها؛ بما في ذلك النفوذ المرن، والقوة الناعمة، وهي الحالة التي تتميز بها الذكورة الواقعة تحت تأثير فضيلة الخصوصية، حتى لو استوجبت المجازفة بالذات خارج ما هو متاح في المنظومة الاجتماعية؛ إلا ضمن إطار ما تمنحه خصوصية الذات خارج ما يستدعيه الواجب الأخلاقي، والواعز الإنساني.

(1) نفسه، ص 111، 113

(2) جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة، فلاح رحيم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2014، ص94

وإذا كان النسق المعياري للذكورة هو حب التملك، والتفرد بالقيمة المرغوب فيها؛ فإن «سلطان زعتر» يمثل القناعة المفرطة في حب التميز؛ لتحقيق هدف التسلط، وحب التطلع إلى عالم الاستئثار بالميل إلى النشوة، التي تقود صاحبها أحيانا إلى الجحيم، وهو التشخيص الذي وُسم به من إحدى إحالات شخصيات الرواية لزهية: عمك كان حقبة ملتوية، في حياتي، فلا تسأليني أرجوك بعد الآن عن زمنه، زمن سلطان كما أسميه لنفسي أحيانًا. أريد لعقلي أن ينسى ذاك الرجل، وكل الذنوب التي كان يخبرني عنها في لحظات صفائه، فلا أحاسب نفسي طوال الوقت لأني لم أردعه أو لم أبلغ عنه[1]. لعل هذا النمط من السلوك هو ما يعشِّش في ذهنية الذكورة، المفعمة برعونة الفحولة من دون الإحساس بالرغبة الواعية، أو بوهم تلك العزيمة المقيدة بالحدود التي ترسم مكونات الذات الانفرادية؛ بمعزل عن المعالم المشتركة مع الآخر؛ لأن الحد الذي يموْقع الذات الشاردة هو نفسه المدى المؤدي بصاحبه إلى العتمة؛ دون مراعاة تنامي التفاعل الإنساني من تجاذب وتنافر، أخذ وعطاء؛ بالنظر إلى أن تكوين الذات يبدأ من مصدر الارتباط بالآخر، ضمن علاقة اجتماعية متكاملة؛ غير أن غربة «سلطان زعتر» لا تشعر بسؤال المسئولية مع الآخر؛ إلا بما يمنحه هذا الأخير من إثارة، تشكل نمط متعة الحياة؛ على نحو ما نجده في مسار حياته؛ الذي تتردد معه أصداء الاستغلال والصفقات المشبوهة، وكل ما يسلب الذات من فاعلية الانتماء، بخاصة حين تتأثر الذات المتحينة باقتراف الذنب واستغلال الفرص، كما جاء في نظر أحد أعوانه في قوله لزهية: أدرك أن ذاك الرجل لم يترك فرصة في الحياة إلا ارتشفها حتى الثمالة، كل الفرص المتاحة، كل الأموال التي سنحت له إمكانية احتجازها في خزائنه اختزنها، كل الأرواح التي أبيحت له قام باستلالها، لم يترك شيئا يعتب عليه.[2] وإذا كان من المرجوح نفوذ المتجبر أن يتكمَّن في كل ما يخص به ذاته من رغبات؛ فالقيمة المعيارية لهذا الاستئثار، التي يعترف بموجبها المتسلط؛ لا تأتي من قبيل الوعي المشترك، والتكيف مع مطالب المجتمع، ومن هنا تخترق السلطة الزائفة كل فعل مجدٍ، وتتعالى على كل ما هو مألوف، أو مأمول في أفقه المعياري؛ لكن إشباع الرغبات، والميل لمبتغى الشهوات غالبا ما يوقع صاحبه في المجازفة، التي تتأسس سبلها على المسوغات النفعية» في محاولة الهرب من الشروط التي يقع بوساطتها تخليق الذات، أو التغلب على هذه الشروط، (حين) يكون صراعي مع القواعد صراعا يخصني أنا. ويبقى سؤال الذات: «منْ يمكن

(1) الرواية، ص114

(2) نفسه، ص 156.

أن أكون في ظل نظام الحقيقة الذي يقرر الأنطولوجيا بالنسبة لي[1].

وفي لُجَّة ذلك يبدو أن «سلطان زعتر» لا يخالف هذه القاعدة التي تعنى بالذات في رغائبها اللذيذة؛ بخاصة في صلتها بالجسد الذي بات يتصدر الإدراك، وعدم بصيرتها حقيقة الواقع، أو تجسيد الحق، بعد أن تحول الوعي من إنتاج أفكار إلى إنتاج سطوح، والاحتفاء بالجسد المرتبط بالمتعة والاشتهاء، وكل ما يحاكي «**عنفوان الجسد وتوثبه**»، كما جاء على لسانه في إحدى الحفلات وهو يقول: الآن الآن ...الحاضر هو الأهم، كل التاريخ هراء، وكل تاريخ يجعلنا أبناء الوهم، والخيال، والقتل هراء ....بصحة هؤلاء الحاضرين الأحياء ...نخبك أيتها الأندلسية الجميلة الحاملة دماء الأجداد ...نخب الراقصة الرشيقة القدمين ذات الجسد الميَّاس... وعلا التصفيق المدوي في المكان رغم أنهم لم يفهموا شيئا من كل ما قال! [2]

لقد أجادت هدى عيد في تشخيص صفات الشر المنتشر في المجتمع، وأتقنت في رسم حالات الفساد، وتمكنت من نعت سمات الضلال؛ في غياب عالم القيم، تأسيسا على مبدأ التعاضد،؛ العالم الذي أصبح ينحو – في تضاعيف لا مقول السرد – نحو غريزة العدوان المرتهنة بالسلب المحض، بعيدا عن فطرة الكون ونواميسه، وسنن الطبيعة، وحاجات المجتمع، التي تستمد مقوماتها من نسق المبادئ الخلقية، بصفتها رقيبا أخلاقيا، يمتص أفعال الخطَّائين حين يميلون إلى الشهية التي يصبح معها فعل الشر ناجزا، ومن ثم فإن واعز الذات في صفات «سلطان زعتر» يجسد حالات إنسان العصر، وطوية المجتمع، الذي أصبح يقع تحت تأثير الأهواء، التي تخفي وراءها أنانية مفرطة؛ حين تتجاهل الطبع الملازم لفعل الخير، مقابل حب التملك في علاقته بالسلطة التي انتهجها «سلطان زعتر» رمز الرغبة في التدمير، نظير العلاقة بالتسلط، بخاصة سلطة الإنسان على الإنسان، كونها علاقة تحيط بالإنسان في حب التملك الذي نسج «سلطان زعتر» ترتيب دواليب الاستئثار بإحكام على نحو ما جاء على لسان السارد: طوال حياتي لم أصادف رجلا بذكائه يا ابنتي، يقولون إن الوسامة تناقض الذكاء، ربما، أقول ربما لكن السيد سلطان زعتر كان رجلا استثنائيا جدًا، خرق كل القواعد وهشم كل المقاييس[3]

(1) ينظر، جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ص 69
(2) الرواية ، ص 98
(3) نفسه، ص 41

الخطيئة التي لا تقاوم/ توريث النسيان

تُقدم لنا هدى عيد – بحنكتها الفنية – سردا متناسقا مع حالات وتحولات الأحداث، التي أسهمت في صناعة شخصية الذهول في مسمى «سلطان زعتر»؛ ضمن إطار متابعة ما يُروَى عن هذه الشخصية الأخَّاذة/النَّبَّاذة، التي تمارس سلطة العنف المبطّن بشكليه المدمر والناعم، أو ما يمكن أن نطلق عليه بـ «**صناعة شخصية الذهول**» بممارستها العنف الخلاق؛ بحسب ما ترويه عنه شخصياته المثيرة، تلك الشخصيات التي كانت تلازمه، وتتعلق به، كونها تعد شريكا في الإدانة بقبولها المطالب، أو بخضوعها للاستجابة، وقبولها الإطاعة والتلبية، على الرغم من إدراكها عتمة ما تقْدِم عليه من تبعات هذا الإذعان، وتداعيات العواقب؛ بالنظر إلى استغلال «سلطان زعتر» كينونتهم ومشاعرهم، بخاصة ممن هم غير قادرين على إدراك معنى الحياة، الأمر الذي أسهم في إيقاعهم في فخ السقوط الحر، المشفوع بإشباع الرغبات، حين كان يتفنن في استدراج ضحاياه بطريقة محبوكة؛ بالإغراءات التي لا تكون متاحة إلا لذوي الوجاهة المادية، أو التأثير بالصلاحية، بوصفها وسيلة وغاية في الآن ذاته؛ فهي وسيلة عند من كان يرغب فيهن سلطان من العشيقات، وغاية كونها تلبي حاجات مريديه من ضحاياه عبر تعزيز الرغبة، التي طالت أيضا شخصيات نافذة في جميع المجالات؛ بحسب ما روي عنه لزهية من تقديم خدمات جليلة لأصدقائه: « يقدم لهم خدمات شتى، ها ها ها تعرفين طبيعتها؟ لا تعرفين، غريب أمرك مدام، معقول ما عندك فكرة، ولو؟ يعني مخجول كيف أقولها لك حبيبتي هي مهنة تضمن استمرار الجنس البشري، وازدهار أعضائه، وخصوصًا جنسنا نحن الشرقيين ها ها ها، أها فهمت طبيعة هذه الخدمات، برافو عليك ،نعم نعم خدمات جنسية بالطبع، الجنس محرك العالم حبيبتي، يعني ماذا نفعل؟[1].

وإذا كانت سيطرة سلطان زعتر محكومة بالكمال المادي والخدمات المرهفة، والعطايا الرغيدة، كما اتضح في مسيرته مع شخصياته، التي اكتسبت طابعها السردي من الواقع الموبوء، فإن الاستثمار في الرغبة كان يقوده إلى كل ما هو مناف للعفة، إلى الشهوانية، والإيقاع به في قفص النرجسية، وشباك الأهواء بين متعة الذات كما في مساعيه المتشبث بها في مطالبه الملحة على التوالي، وبين سلب حرية الآخر وإلحاق الأذى به، وهو ما توضحه الشخصيات الساردة ممن تعلقت غريزته بهن، ومتعه المشتهاة. ومن

(1) الرواية ، ص 50

هنا تكمن حالة تفاعل الموضوع الأخلاقي بالانصهار في بوتقة الاشتهاء بالرغبة؛ إذ إن كليهما – سلطان ومريدوه – وقعا في تناقض مع الحياة الطبيعية، ومع ما تتوخاه القيم الأخلاقية والإنسانية على حد سواء، ومن ثم فإن المهمة النفعية بسلطتها العَسِفة طغت على المهمة الأخلاقية في ارتهانها بالتبعية الرمزية للخطيئة، التي لم تعد لديها القابلية للمقاومة من أجل إنقاذ العالم من الجحيم، بحسب ما يصفه السرد الوصفيِّ لوقائع تعكس الأمر السائد في الحياة الاجتماعية المتهالكة على الملذات، كما رسمتها شخصيات الرواية، وكأنها تستمد تعاليمها من روح الفشل، عوض التعاطي مع روح القوة والتضافر.

يظهر «سلطان زعتر» في الرواية على أنه محرك اللامعقول، بوصفه ذروة الضياع في رحلة مع تيار حصيلة تجربة المجتمع، نظير ما يتعاطاه من نفوذ، على خلاف ما ترمي إليه روابط المصالح المشتركة في المجتمع المدني، ومن هنا فإن «سلطان زعتر» يمثل الوعي المتشظي بميله إلى منزع الحواس، اعتقادا منه أن الحياة قائمة على المنفعة، التي تتطبع بها المعطيات الحسية، تصديقا لمقولة إن رغبة المشتهى وسيلة ندرك من خلالها منافع جوهر الحياة، أو أنها في نظره نشاط حيوي حتى لو أدى ذلك إلى اللامعقول بعبثية الوجود، على رأي ألبير كامو Albert Camus « من يشعر باللامعقول يرتبط به أبدا، امتثالا للامعقولية الكون، وعبثية تداعيات الواقع؛ ومن ثم فإن الإقرار في لامقول النص من سلوكيات «سلطان زعتر» هي ظاهرة تعكس حالة الواقع المتأبَّى من خلال هدم المبادئ المنتشرة في الوعي، بحسب ما جسدته شخصيات الرواية بإسهامها في نشر الشر المبطن بالمشتهى، الذي لا يعدو كونه تشييئا للمرء بالإفراط فيما يشتهيه من متعة سادرة، وغواية منتشية بالضلال.

وما كان ذلك لينكشف لولا وجود شخصية زهية التي كانت تترقب التغيير من خلال البحث عن الحقيقة؛ وكأنها تمثل نزهة الآملين، بها يزهو المبتغى في عيون البررة في هذه الحياة، بالنظر إلى أنها فضحت أطماع المقربين من الشر (سلطان). ولعل في توظيف الدور الفاعل لشخصية زهية ما يشي بإبانة الحقيقة على أصل وضعها في الواقع المثال، وكأنها تقدم للواقع في تضاعيف النص، ومجازات مضمراته، ما هو بحاجة إليه من تدبير في البحث عن الحقيقة الضائعة، على وَفق ما كان يخيّم على الواقع ويغشاه من عتمة، ومن هنا جاءت زهية لتقدم للوضع الجائر في المجتمع ما ينقصه من قيم بالبحث في العمق؛ حتى لو أدى ذلك إلى ما لا يمكن أن يستعاد بسهولة.

تحاول زهية تسليط الضوء على الذاكرة المرتبطة بالآصرة، بوصفها رمزا للهوية في صورة عمها الغائب عن الوجود، وفي كل مرة تصطدم بجموح من زوجاته وعشيقاته، ومجافاة ممن كانت تلتمس منهم العون في الكشف عن مصيره، كما لو أنها تبحث عمَّا يصح عليه الشيء ووجوبه في الواقع المبتغى؛ على حسب ما تموضعت فيه هذه الصورة مع زهية في حوار لها مع إحدى زوجاته، التي تمانع الإدلاء بأي معلومة، وترفض أن تذكرها باسم سلطان الذي كان في نظرها «هائجا كثور مصارعة إسباني، يبحث عن المستحيل يناطحه، ويركل كل ما فيه ... تبحثن عن أي شيء، أي خبر قد يوصلك إليه، تبحثين عن الشيطان»[1]؛ وبمعنىً ما، فإن تجريد الوعي في أي مجتمع أثبت عدم قدرته على ترسيخ القيم؛ ولكي تكون المبادئ راسخة في أي مجتمع بحسب ما تمليه سرديات الرواية، أو بما هو منظورا إليه في مقاصد شخصيات «سلطان وبغايا» فإن التجربة تؤكد أن المنظومة الأخلاقية الفاسدة تكبر مع القيادات الآسنة؛ حين تكون غير قادرة على خلق الواعز المشترك، وتجاوز وحدة الصلاحية الفردانية، التي غالبا ما تحول الإنسان إلى أشياء، تتمحور حول الإذعان للملذات في هيئتها المعبرة عن عالم الرغبات الحسية، لا عالم الأفكار المعرفية والروحية، وليس «سلطان زعتر» إلا عينة تَلِفَة لعناصر أخرى ضارة بالمجتمع؛ أو هم كما وصفهم مايك فيذرستون Mike Featherstone بصانعي الذوق الجديد؛ ببحث لا ينتهي عن التجارب الجيدة والمتع الجديدة[2] في توجهاتها الاستهلاكية بامتداد نفوذها إلى تدمير الإرث الحضاري، ونبذ الهوية الثقافية، ونفي الضمير الجمعي، على نحو ما علق به سلطان زعتر في موقف مشابه لزميله برهان في قوله: – أبي أضاع عمره في الهراء، التاريخ الذي استمرَّ طوال عمره يتحدث عنه، ويحدِّث امرأته عنه حتى فرَّت من أحضانه، فجنَّ جنونه بعد مدة، يبدو لي الآن كشبح... كأساطير، يا له من رجل! إنما المجد حلم الرجال، ومثل أبي من يضيَّع المجد، ومثلي وحدي من يصنع الأمجاد... هل تعتقد يا برهان أن فشل أبي هو الذي صنعني[3]! وإذا كان سلطان – ومن في شاكلته – يستقوي بتهجير نتاجات السلف، فما الذي يجعل منه يرفض كل القيم المتوارثة، واستبدال مرتكزات السلطة بإشباع الرغبات المادية والمعنوية، وتعزيز المعنى المنفلت بنكران الثقافة الراجعة، واليقينيات التي كانت تمليها المؤسسة

(1) الرواية ، ص 20

(2) ينظر، جيرمي ريفكين، عصر الوصول، ترجمة، صباح صديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 338، 339.

(3) الرواية، ص96

الثقافية، هل لذلك تحدٍّ بدافع نكران الذات في علاقتها بالمجتمع، أو كما يقول فرويد Sigmund Freud أن هناك فرقا شاسعا، وتعارضا شديدا بين غرائز «الأنا» والغرائز الجنسية، وإلى القول بأن الأولى تدفع نحو الموت، في حين تعمل الثانية على إطالة الحياة .. وفي ضوء ذلك لا يمكن أن ننسب الميل إلى الارتداد إلا لتلك الفئة الأولى من الغرائز، وهي الصفة التي تلازم إجبار التكرار، ذلك لأنا قد ذهبنا إلى أن غرائز الأنا تصدر عن نشوء الحياة من المادة الجامدة، فهي تعمل على استعادة أحوال الجماد؛ على حين أنه من الواضح أن الغرائز الجنسية تهدف إلى الخلية التناسلية، ويتوقف على تحقيق ذلك الشرط أن تستطيع الوظيفة الجنسية إطالة حياة الخلية، وأن تضفي عليها مسحة من الخلود.[1]

ولعل من يتابع مسيرة شخصية «سلطان زعتر»، وتحولاتها في تضاعيف السرد، يجد عدم تلمس السبيل المؤدي إلى الحقيقة، أو عدم اقتفاء النهج العقلاني، بعد أن ترسخت فيه دلالات العناية بالجسد، بوصفه الوسيلة المرغِّبة في الاستثمار، والمستحثة على توسيع السلطة بتنظيم ممارسات توظيف الجسد بخاصة.

وعلى الرغم من ذلك، يبدو أنه من الصعب – في نظر التحليل النفسي – ارتكاب «سلطان زعتر» سلوكا طفيليا متعمَّدا، أو أنه ارتكن إلى الإثم، بوصفه مناقضا للسلوك الذي يجري داخل البنية الاجتماعية؛ إلا بما تدفعه غريزة الفطرة الوراثية بالاندفاع إلى الجشع من مطالب الحياة، التي حولت علاقاتها الاجتماعية إلى سلعة، وتعظيم القيمة المعيارية للمتعة، بعد أن باتت تهيمن على مثيرات الإنسان الداخلية قبل النوازع الخارجية، وما تحمله من دلالات، كما أصبحت تؤدي دورا أساسًا؛ لتمكين ثقافة الوصول، الخاضعة للأهواء، ومصادرة القيم. ولم يكن ذلك كذلك إلا بفعل القوة الخفية التي تضمر غرائز ظلت تحقق وجود الفرد بالقواعد المحكمة؛ لتعزيز الوصول – بكل السبل – بما في ذلك النيل من سلطة الجسد الحامل للنشاط الجنسي، وقد عبر السرد عن ذلك بهذه الصورة التي رسمت «سلطان زعتر» في أثناء زيارته مجد التاريخ (غرناطة)، حين انبثقت الحيوية في عينيه وهو يترنح بنشوة سكره «أعاد رفع كأسه عاليا .. وقال لنا بمرح استخفه فجأة: الآن الآن ...الحاضر هو الأهم، كل التاريخ هراء، وكل تاريخ يجعلنا أبناء الوهم والخيال والقتل هراء ....بصحة هؤلاء الحاضرين الأحياء ...نخبك أيتها الأندلسية الجميلة الحاملة دماء الأجداد ... نخب الراقصة الرشيقة القدمين ذات

(1) سيجموند فرويد، ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة، إسحاق رمزي، دار المعارف، مصر، 1980، ص 78.

الجسد الميَّاس[1]. وإذا جاز لنا تشخيص «سلطان زعتر»، فإنه ليس إلا عينة من حالة اللاوعي، تكشف عن عمق الصدمة التي تلاحق حقيقة الذات في تعبيرها عن الرصيد الثقافي الذي يضمره اللاوعي؛ ومن ثم فإن سلوكيات سلطان ليست اعتباطية إلا في ضوء تداعيات رواسب الماضي الدَّعيَّة، كما أنها ليست – أيضا – نعتا قائما بذاته، بقدر ما تشكل ظاهرة يؤخَذُ بها على محمل العمومية، التي تحاول فرض سلطتها على البنية الذهنية، وسائر المجتمع المبني على الفساد، فالاتجاه الذي يميل إليه سلطان إنما يصدر عن المنظومة الثقافية، والنظم الاجتماعية العليا، التي تتحكم في كل الوسائل، وتتكافل عناصرها في الوعي الجمعي.

وعندما شخصت هدى عيد معالم «سلطان زعتر» بسلوكياته التِّلِفة، فإنها أرادت – بذلك – رسم صورة المجتمع بتموقعه في حالات مثل، الحجة، أو الامتثال، أو الذريعة في كل ما يتعلل به الواقع، وحذوه على مثال السلف، بخاصة فيما يستهدفه من غرائز، بوصفها موضوعا مثيرا للدهشة، ونسقا مكبوتا في المثل العليا للثقافة العربية على وجه التحديد، ومن هنا تمثل شخصية «سلطان زعتر» في نظر الضمير الواعي نمط حياة لمراحل هذه المثل بركائزها الأساسية للخطاب العياني، المتعلق بالجسد من نشاط جنسي، أو الامتاع باللذة، والتصدي لمحاولات الألم؛ في ضوء انصهار هذه المعالم في الذات المتورطة في علاقاتها بالمجتمع الذي استأثرت به فكرة التابع، أو فكرة التمثيل، أو الاهتداء إلى موضوع الغرائز، الذي تكون نتيجته الارتكان إلى الانكسار والانحلال، وهي التيمة التي تشخص موضوع الهدف في مسمى السلطة على حد قول آمنة بلعلى، «استنادا إلى هذه العلاقة بين عناصر المجال المصدر والمجال الهدف يمكن سحب هذه البنية الاستعارية على الرواية كاملة؛ لتبرز لنا الاستعارة الأنطولوجية القائمة على تشخيص السلطة باعتبارها فعلا جنسيا خارج الإطار القانوني والأخلاقي»[2].

وهكذا، يصبح الفساد بؤرة تتلاقى فيها السلطة مع الجسد، ولم يأت محل اعتناء الضمائر الواهية بهما من قبيل المصادفة، بقدر ما يأتي من الوهن الذي يحيط بالخطيئة، وتلزمهم بشبكة منظمة من المعايير المُفْتَرية، والظواهر المفتعلة، لدرجة أن نتاجات الوعي باتت تعد جزءا من إبدالات سلوكيات المجتمع المنصهرة مع المرجعية الثقافية، بخاصة في تنظيم ممارسة اللذة الحسية، والسعي إلى تحقيق المصلحة التي أصبحت تُجاذِب

(1) الرواية ص 98.

(2) آمنة بلعلى، تمثيل الفعل الأخلاقي في رواية سلطان وبغايا لهدى عيد، مجلة الحداثة ، بيروت، السنة الثالثة والعشرون ع 175، 176 ربيع 2016، ص 256.

الوعي المعرفي الناضج، على الرغم من أن المصلحة في نظر ميشال فوكو Michel Foucault مطروحة بشكل جذري قبل المعرفة، التي تخضعها المصلحة لها كمجرد أداة، فالمعرفة بوصفها منفصلة عن اللذة والسعادة مرتبطة بالصراع، بالحقد، بالشر، وهي أشياء تمارس فعلها ضد نفسها إلى درجة أنها تعدل عن نفسها عن طريق المزيد من الصراع، والحقد، والشر[1] في شكل الخطأ الذي يؤدي دوره باستمرار، في صورة جدية للواقع التي تركز على توهيم الوعي؛ عبر ممكنات عبثية، مبنية على كل ما هو لاهٍ، ومدهش، في الحياة اليومية؛ لتصبح المعادلة في الواقع عبارة عن أسنن codes فارغة من أي مضامين أخلاقية، تقوم على العبثية Absurdism ، ومن هنا يتأطر المعنى المنفلت في الحياة السائلة، المحكومة بمنطق الزيف، وهي الصورة التي رسمتها هدى عيد بإتقان في مجريات أحداث الرواية، وفي علاقتها بالاستبداد الذكوري في شخص «سلطان زعتر»، الذي تطاول على سؤال الأخلاق؛ بمغانمه في عشيقاته اللواتي كان يصطفيهن، وعبثًا كان يتحكم فيهن، ومن دون مراعاة العواقب الجسيمة، المعبر عنها في مثل هذه الصورة: «زوجته الصبية كانت تصطحب عشيقها بين الآونة والأخرى إلى بيتها، بل تدخله إلى غرفة نومهما، وتسمح له بمداعبتها أمام زوجها وهو طريح الفراش؟ يا ستّار يا رحيم! وبعدما تخرج تقول للممرضة إنه لك الآن اعتني به جيدًا، لا أريد لزوجي الحبيب أن يموت سريعًا؟ فاسقة تلك المرأة، زعلتيني والله، أي ضمير سكن تلك الزوجة الملعونة حتى تفعل ما فعلت؟ أصلا أي أحمق يتزوج امرأة صغيرة جميلة، وهو في السبعين من عمره، عمك، لا أحد سواه يستطيع فعل ذلك طبعًا، ولا رجل غيره امتلك جرأة ارتكاب الأفعال الغريبة في الحياة[2]؛ أي خطيئة هذه؟ وكيف نصنفها؟؛ من نافل القول أن شخصية من هذا القبيل لم تقتصر على أفعالها وحدها بل كانت مشتركة في تعاطي الغريزة بين جميع الناس، والمرأة على السواء، بحكم التشارك في الخطيئة مع السلوك الباثولوجي Pathology المخادع، في ضوء السلوك المرتبط بالغريزة الشبقية على وجه التحديد؛ وبالنظر إلى تعاظم الذات الأنثوية، بالكيفية التي يمكن أن تحقق فيها كمالها وغايتها، ومحاولة تفردها في كل شيء؛ حتى في طلبها اللذة من الآخر حين تريد تَملّكه استبدادًا وبغيًا، وتلجأ المرأة الباغية إلى المخاتلة والخداع في إمكانية احتواء الذكورة المخادعة، حين تحس بأنها تستحق منه ما تريده، فتمارس الدهاء للظفر بما تأمل على الدوام، وفي المحصلة يؤكد الوصفيِّ لسرديات «سلطان وبغايا» أن الواقع يعيش

(1) دروس ميشيل فوكو (1970 – 1982)، فوكو، محمد ميلاد، دار توبقال للنشر، 1988، ص 10.
(2) الرواية ص 79، 80

المتناقضات، كونه يجمع ما بين الرغبة والاستبداد، والخداع والبهتان، وتمزيق القيم وعدم الاكتراث بها، وقد تعاملت هدى عيد مع مثل هذه المواضيع بحنكة سابغة، تعكس واقع الحال في المجتمع المتوحش بدمجها السلطة في البغي، واستحكام الانفلات بينهما في صخب اللذة الحسية؛ «لتبرز لنا الاستعارة الأنطولوجية القائمة على تشخيص السلطة باعتبارها فعلا جنسيا خارج الإطار القانوني والأخلاقي، ما يجعلنا نتحسس طبيعة هذه الممارسة كاستعارة تصورية تعد مجالاتها صورة ذهنية عرفية، يناظر فيها فساد السياسة فسادَ البغي، وهذا ما يدفع بنا إلى تصور سيناريو السلطة الذي يناظر سيناريو الفساد الذي تبرز عناصره تباعًا على مسار الرواية»[1].

ولعل في صورة شخصية أزهار زوجة «سلطان زعتر»، ما ينم عن تلك «المرأة التي كانت تلهو به، أو ربما كانت تحبه، وبعد ذلك قررت التلهي به، أظن أنها المرأة الأولى التي ركَّبت قرونا، وألحقت به ألما كبيرا، لكنها كانت تحفة، تستثير كل الفُرش وأنقى الألوان... لم أر أجمل من عينيها المخمليتين ولا من بشرتها البلورية الفتانة»[2] وهو ما يشير إلى اصطفاء سلطان لعشيقاته اللواتي يعتقد فيهن أنهن تبادلنه العشق.

شهية التدمير/ غياب العدالة الاجتماعية

لقد أصبح للفساد في المنظومة الاجتماعية عالمه الخاص، مع تنامي أفكار ما بعد الحداثة في شتى المجالات؛ حيث أرفع القيم والمبادئ تقوم على التدمير؛ بتأثيرها البالغ في الحياة الاجتماعية، بخاصة إذا كانت ترعاها السلطة في جميع مؤسسات المنظومة السياسية، والمدنية، والأخلاقية؛ لذلك ليس غريبا أن تعكس شهية التدمير حالة من اللامعقول؛ بتوظيف وسائل فجة؛ بحسب ما تمليه غريزة حب البقاء، وبهذا المعنى تصبح أذية الحياة ساعية إلى رسم واقع مُتَذرِّر، تربطها حالات من التعارضات بصورة أكثر بشاعة من خلال فقدانها كل شيء مؤكد، أو ثابت، نظير تدفق «**أنماط الحياة السائلة**» في العلاقات الاجتماعية المدمرة بإرادة القوة، بوصفها القوة الوحيدة التي لا يمكن تطويعها، أو إذلالها، حين تسعى – حتى لو كان ذلك من دون شعور – إلى نشر الانحراف والتدمير الذاتي في غضون تفشي الفساد، الذي ما فتئ يسيِّر العالم سيرًا أرعن، ضد كل ما يضمن السر الأسمى للوجود، ومع غياب هذا السر تغيب الإنسانية بصورة أكثر بشاعة؛ حين يميل الإنسان إلى التهور مع تبنيه وتيرة تفسخ الذات وانشقاقها

(1) آمنة بلعلى، تمثيل الفعل الأخلاقي في رواية سلطان وبغايا لهدى عيد، مجلة الحداثة ص 256
(2) الرواية، ص 116، 117.

من الداخل. وقد عبرت شخصية «سلطان زعتر» عن هذه الحالة بنوع من اللاجدوى؛ إبَّان محاولته تعطيل كل القيم، ونقضها، وحين ترى شخصية من هذا النوع في المجتمع، بوصفه نموذجا للضياع، يعني أنك ترى انتهاك الحاجة التي تتوافى بها الحياة الطبيعية؛ ذلك أن ضمير المتكلم في مضمرات الرواية – مع مسمى سلطان – يكمن في موقع تسيده هو، في الآن ذاته، مكان غيابه، مكان إعادة حضوره ...إن ما يُستنطَق هنا لا يقتصر على صورة الذات وحدها، بل يمتد ليطال المكان الخطابيِّ والمعرفيِّ الذي تُطرَح منه أسئلة الهوية على المستوى الاستراتيجي والمؤسساتي،[1] وعلى جميع الأصعدة، كونها امتدادًا للعدم، وتدفقا للتناقض، حين يعيد الضمير في مسمى سلطان خلق ذاته في صورة مرآتية للمجتمع.

وإذا كان هناك من صراع نفسي عند من يخالف الصواب، وهو عارف به؛ فإن طوية «سلطان زعتر» تعكس هذه الحالة، كونها ترسم صورة الانهيار بإنتاج نوع من الأفكار والسلوكيات المجردة، وغير المترابطة؛ بما لم يظهر أي اكتراث لمعنى الحياة؛ لأن ذلك في نظر السرد الوصفيِّ له كان بمسوغات السعي إلى الانتشاء من سعادة الحياة العابثة، ليكون سيد مصيره من خلال تتبع الإدراك الحسي في الملذات، ومن ثم فهو ثمرة تلك الحياة المشتركة بين الناس التي تغذيها النشوة، وحب التملك، وفي غمرة ذلك فإننا نميل إلى أن ظاهرة «سلطان زعتر» هي لبُّ مخيال المجتمع، كما تعكس سحر التسيب، والتأثير الانفصامي الذي لا يتحقق من ورائه في الواقع إلا ما هو محال، لأنها لا تعرف الحقيقة من الوهم في الواقع، ولعل تفكيرا بهذا المستوى لا يمكن إلا أن يعبر عن انتكاسة الذات على النحو الذي رسمه سرد الرواية، كما في هذه اللوحة: «في البعيد هناك بشر ينامون في فردوسهم يعتقدون أن ملذات حياتهم خالدة، وأنها تنتظرهم بعد الموت، أتعرفين يا صديقتي الغالية كائنات تستحق الحسد أكثر منهم؟ أين يبدأ الوهم في الحياة؟ وأين تبدأ الحقيقة؟ إنه أمر يصعب قوله، هل ما عشته قد عشته حقا؟ ولمَ هذا الإحساس المخيف باختلاط البدايات بالنهايات؟»[2]؛ وبذلك تكون شخصية «سلطان زعتر» حاضرة في الواقع حضورا صوريا، وحضورا ماديا، بوصفه مركزا للرغبات الملازمة لواقع الحال، الماثل في الآخرين؛ أي في كينونة الواقع، بوصفه مكونا للتجربة المعاشة. ومن المسلم به أن حالته هي حالة مصاحبة للوضع الحقيقي للمجتمع المنحل؛ بعلَّة النزوع الذي يرمي إلى تحقيق الرغبات، ومن ثم لم يكن سلطان سوى ظاهرة وحَّدت ما في الواقع

(1) ينظر، هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة، ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، 2006، ص108،109

(2) الرواية، ص 155

من تصورات سلوكية، بنزعتين متوازيتين، نزعة ذاتية مفرطة، ونزعة جماعية فطرية، طبيعية، بالغنيمة المكتسبة؛ بما أخذه الخلف عن السلف.

لقد استطاعت هدى عيد بحنكتها الفنية أن ترسم موضوع الاستهواء: la phorie بوصفه المادة الخام التي تشخص الذات العربية في أيقونة «سلطان زعتر»، وبما يتضمنه من معيار نفسي مزاجي في تصرفاته المنحرفة، وبحسب ما تمليه وقائع الحياة المشحونة بإباحية أخلاقها، والتواء علاقاتها، بنوع من الحالة المرضية؛ بالنظر إلى أن الحقيقة المركزية في مجتمعاتنا العربية – على وجه التحديد – تستمد مقوماتها من السيادة النموذجية في المحيط؛ غير أن حالة «سلطان زعتر» على الرغم مما تتحلى به من وَجاهة ونفوذ، فإنها لا تشخص الهداية في واقعها المأمول، بقدر ما تجسم الغريزة التي تعتمد على الأهواء؛ بحسب ما تتضمنه من حاجات نفسية، ونوازع شهوانية، ورغبات ذاتية؛ وبذلك فإنه يمثل إنسان الرغبات الغريزية المتوارثة، بوساطة الرواسب المنحدرة إليه من أسلافه، وتستيقظ في الضمائر المتعاقبة متى تسنح لها الفرصة؛ مع ضمائر واهية، مثل: «سلطان زعتر»، وبأشكال رمزية تكون مرتهنة بأحلام اللاشعور؛ إذ كل نزوع من هذا القبيل يرمي إلى سلوك هو في الواقع تَحققٌ مقنع لرغبة مكبوتة، وهي الحالة التي تتجسد في معظم شخصيات الرواية، التي يغلب عليها طابع طلب الرغبات. ومن هنا، فإن معظم حالات وتحولات الرواية كانت تلتمس الرغبات التي لم تصدر عن تبصُّر، بقدر ما كانت تصدر عن مشاعر جسدية، وأهواء ذاتية في صورة «سلطان زعتر» الاستهوائية، امتثالا لمقولة سبينوزا Spinoza التي ترمي إلى أن أفعال الإنسان تنتج من نوازع الجسد والهوى، وإشباع رغبات النفس التي تتشكل منها الذات، ناهيك عن مزاجها الحاد:» فهو كالبنزين سريع الاشتعال، رجل نفطي بامتياز، أخذ من العروبة نفطيته ليس إلاَّ»[1]، إنه استحداث صوري للوعي الجمعي، ووصف كاف لسلوك السمات المعبرة عن النفس المشتركة في المجتمع، خارج نطاق الوعي العقلاني، إلا بما تمليه الغرائز البيولوجية، وتكشف عن وجودها في الجوانب الروحية الغامضة، التي تؤدي دورها في ضياع وعي الإنسان، وغربة روحه: «لم يخطر لي بتاتًا أن سلطان قد يكون مؤمنًا ويخاف الآخرة، بدت لي تلك الالتفاتة بداية مرحلة إيمانه بالغيب، هل لايزال الرجل بكامل وعيه؟»[2]

(1) الرواية، ص 85.
(2) نفسه، ص 161

صك الغفران /استعادة الذاكرة

ليس هناك من شك في أن منجزات الإنسان المتراكمة لا تقوم فقط على العوامل المادية، أو السبل المؤذية؛ إذ هناك جوانب مضيئة ذات جدوى في الإيناس والأناة، وفي مجمل ما يختص به الإنسان عن بقية الأشياء من صفات التبصر والمَحامِد؛ لأن الأصل في الإنسان تلبية المطالب المادية، والروحية، والإنسانية، في ضوء عالمية الأفق، والرسالة المتوخاة؛ والامتثال للمبادئ في أصفى ما ترمي إليه مقومات الحياة، وعواملها الضرورية، التي بها تقوم متطلبات الجسد والنزوع الروحي؛ وهي ضرورة فطرية في الإنسان، على الرغم مما نجده في وعي إنسان العصر من تدمير، والميل إلى الشهوات، واللهف وراء الأوهام، وهو ما أشار إليه ألبرت اشفيتسر Albert Schweitzer حين بيّن أن الإنسان الحديث فقد إنسانيته، بسبب شيوع أفكار غير إنسانية، ويرجع سبب ذلك إلى الخواء الروحي[1]، ولعله الخواء نفسه الذي عاشه السلف في العصر الجاهلي، وتسبب فيما آل إليه الوضع آنذاك بعبادة الحياة، والتعلق بمادياتها، التي من شأنها أن تنسيه همومه من الشعور بالزوال، والفناء، مستبدلين بذلك مبدأ اللذة بمبدأ النزوع الروحي؛ إذ قلما نجدهم يتحدثون عن المعاني الروحية، بحيث اقتصر الذوق عندهم في كل ما هو ماتع، يشبع الخلايا الحسية، والولوج في الرغبة العاطفية، وهوس الاستثارة الجنسية.

وإذا كانت شخصية «سلطان زعتر» – بوصفها أيقونة الإعطاب والفساد في مقول السرد – تجسد ما في الواقع من باطل؛ فإن ما نستشفه في القرائن المجازية، التي يتضمنها لا مقول السرد، ينم عن أن هناك بصيصا من الأمل يقف في وجه ما يفضي إلى المفسدة؛ لأن طبيعة البشرية لا تجتمع على الضلال بالمطلق، ومن هنا نعتقد أن وراء كل مفسدة هناك بذرة خير في عطاء الإنسان؛ على الرغم من تفشي الفساد؛ كما في حالات وتحولات مضمون السرد، ومع ذلك هناك خاطر يخطر في قلب الضمير الحي، وباعث يدفع بالإنسانية إلى التبصر ببريق أمل، كما تجسده ملامح «زهية عاصم زعتر» عمة سلطان زعتر، التي أصرت على البحث عن معرفة حقيقة غياب عمها، الذي لا يمثل سوى توق طبيعي للخلاص؛ هو بحاجة إلى من يدفع به إلى نظام الغايات، التي تخلق السعادة كبديل للانحراف، والضلال. وانطلاقا من أن سنن الكون توجب إشباع الرغبات الطبيعية في الإنسان، صالحها وطالحها، والسعادة بينهما مرتبطة بقيمة النجاعة المتفاوتة نسبيا بين البشر؛ فإن مسعى زهية يصب في خانة

(1) ينظر، اشفيتسر، ألبرت، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، بيروت: دار الأندلس، 1983م ، ص27–20

مبدأ موجبات العدالة، وفي هذا ما يشير إلى أن البحث عن غياب سلطان زعتر هو بمثابة غياب العدالة الاجتماعية، وغياب السعادة في المجتمع، وكأننا بالسرد الوصفي لها تظل طريدة، كما يظل الحلم بعيد المنال، أو في حكم المؤجل، ومن هنا جاء الدالّ القرائني» indexical signifier، لرمز الصلابة في مسمى «زهية» وهي تحاول أن ترسو على الحقيقة في علاقة التآصر بينها وبين مدلول التنقيب، وإعمال النظر لفهم الصواب، رغم كل الانكسارات التي كانت تتلقاها من معارف عمها سلطان، وبما أن موضوع الاختفاء شائك في نظر مسمى زهية، فإنه « لا يحتمل أي تأجيل أو مماحكة فقد تمَّ بإجماع كل المجتمعين تعليق البحث بأية مسائل أو قضايا أو مشاريع عاجلة أو آجلة حتى الوصول إلى الحقيقة الناصعة الجلية المتعلقة بمصير هذا المناضل الوطني الكبير »[1].

يحوِّلنا السرد من متع سلطان في البحث باستمرار عن حسناوات – يغمرنه بغروره الامتلاء من ملاذ الحياة – إلى فضاء البحث عن سؤال الأخلاق المرتبط بالعدالة الاجتماعية في غياب سلطان، وبذلك يجذبنا السرد إلى حبل الأمل المنشود، ومن هنا تكون رحلة البحث عن سلطان هي بمثابة المعادل الموضوعي للبحث عن المنظومة الأخلاقية التي تسير المجتمع الفاسد، وقد وجد السرد نفسه – بحنكة هدى عيد – في المحصلة منقادًا بالدلالات الضمنية المجازية إلى الاستنجاد بالأمل، وطلب الاستغاثة بالتطلع إلى المبتغى، على الرغم من أن واقع السرد لم يشر بالقرائن الصريحة إلى ما يفيد أن زهية تبحث عن غايات الخير، والحق، والسعادة، والعدالة إلا بالاستناد إلى ما يُدعى بالقرين المجازي فيما يستلزمه الدال المرآوي، الذي يتماهى فيه مع المجتمع بجميع أطيافه، كما في شخصيات «سلطان وبغايا»؛ لأن ما تقوم به زهية يقودنا إلى معنى الإفضال، كونه مصدر المهام الخيرية، بدافع انتشار القيم الفاضلة، التي شعرت بفقدانها في المجتمع، حين رأت في نشاط عمها – مجازا – أن غلبة سلطة الشر عمت على فعل الخير، لذا جاءت فكرة التطوع لإمكانية إنقاذ المهمة الإنسانية؛ عندما فكرت في بناء مؤسسة خيرية تنقذ الجيل الواعد، الذي لا يكتسب كينونته إلا من خلال علاقته بالنوايا الحسنة، والفعل الخيري، وتدعيمه بالمشاريع التي من شأنها أن تسهم في مسار النظام القيمي لبناء المجتمع الحديث، قبل طاقة الإنتاج التي تهدف إلى تحسين استغلال المواد الخام، كل ذلك من شأنه أن يسهم في تعزيز قوة القانون، واستحكام الالتزام الذاتي

(1) الرواية، ص 185

الذي تخلقه القيم، ولن يتحقق ذلك في نظر الدلالة التي يتم إدراكها في نهاية السرد إلا بطرح سؤال الأخلاق، المرتبط بالعدالة الاجتماعية، يكون من منزلتها أن تصنع الذات الوطنية المجدية، الجديرة بخلق سر الحياة الأسمى؛ وإشباع حاجات الإنسان الروحية، والمعنوية، والمادية، والنفسية، حتى يستفيد منها المجتمع، وهو ما تفطنت له السلطة حين «قام وزير الشؤون الاجتماعية عند تمام الساعة الواحدة ظهرًا بالافتتاح الرسمي لمركز إعادة التأهيل والإصلاح الذي موَّلته، وقامت بالإشراف على إنجاز أقسامه، وتأثيث غرفه السيدة المحسنة زهية عاصم زعتر، مطلقةً عليه اسم عمها المتواري عن الأنظار سلطان بك زعتر، وقد أكد الوزير في كلمته القصيرة التي ألقاها: على أننا شديدو الاعتزاز بهذه المحسنة الفاضلة التي قامت بسدِّ عجز فاضح في مؤسساتنا من خلال إنشائها مؤسسة عظمت حاجة المجتمع إليها، فما دمنا ندفع شبيبتنا بطريقة أو بأخرى إلى اليأس والإدمان بارتكابنا الكثير من الفظائع في حقهم، فعلينا أن نقوم أقلّه بإعادة تأهيلهم، وهذا أضعف الإيمان كما يقال، لذلك قررنا منح السيدة زهية جائزة (التحديث والعلاج) عربون تقدير لمشروعها الرائد هذا»[1].

وبالمحصلة، تدخل العلاقة الإنسانية المتضمنة في سرد «سلطان وبغايا» في تنازع بين الشر والخير، ضمن منظومة أخلاقية، كان يغلب عليها نسق القيم الفاسدة، وهي تكبر مع القائد الفاسد، في ضوء ما كان يمليه المجتمع في أثناء تآمره بنية الإضرار، مقابل الميل إلى الملذات، مع انحراف السلطة في جميع مساعيها، ناهيك عن الاستبداد الذكوري الذي تنكر لفلذة كبده – من صلب ظهره – حين تبرأ من ابنته، وتملص من الحقيقة؛ إلى الحد الذي شكل موضوع الشر إطارًا مرجعيا للحياة الاجتماعية، إلى أن جاءت إحدى فصائل النواة الخيرة لمحاولة تطهير الفساد من براثنه، مبتغية بذلك استبدال الإحسان بالإساءة، والتفاؤل بالتشاؤم، وفي ضوء ذلك تطلعت زهية زعتر إلى استكشاف شروط المعقولية في الحياة، متخذة من الفعل الخيري بديلا لآصرتها المرتهنة بذمة عمها، ولكي تبرئه من ذنوبه، التي أسهمت في إتلاف المجتمع، ومحاولة إبعاده عن الإرادة الخالصة في مشيئتها الإنسانية؛ بما يستدعيه التنسك الأخلاقي Ascétisme moral، بالنظر إلى أن لهذه الأطروحة أهميَّة بالغة. [...] لا يمكننا فيما يخصّ الإنماء الأخلاقي للاستعداد الخلقي المغروز فينا، أن نتخذ من حالة براءة من شأنها أن تكون طبيعيَّة فينا منطلقاً لنا، بل نحن مجبرون على أن ننطلق من فرضيَّة الطابع الشرّير

(1) الرواية، ص 188

(للمشيئة) في تبنّي مبادئ ذاتيَّة تعاكس الاستعداد الخلقي الأصلي؛ وبما أنَّ هذا النزوع إلى تبنّي مبادئ ذاتيَّة من هذا القبيل غير قابل للاجتثاث، فينبغي أن نضيف إلى ذلك الصراع الذي يستدعيه ضدّه[1]، وهو النضال من أجل فعل الخير، حتى يصبح مادة للقيم النبيلة، ومنبعا لقانون المجتمع المدني بحسب ما تمليه المشيئة الإنسانية، وتشريعاتها الأخلاقية، التي لا يدركها إلا الجدير بالثقة بكل معاني الاعتدال والأمانة، على النحو الذي بادرت به زهية حين اشترت قطعة أرض في دلالة على الخصب والنماء، كما جاء في السرد، «هذا وقد صرحت السيدة زهية بأنها ستحترم وصية عمها المرحوم، معلنة أن المنطقة ساحرة بحق، وأنها تفكر في شراء عقارات لها فيها، والقيام بإنشاء بعض الفلل السكنية الجميلة لاستثمارها هناك»[2].

لقد رصدت هدى عيد تشخيص الواقع بكل دقة، وبحسب الجهاز المفهومي الذي يتبناه التحليل النفسي، استنادًا إلى توازيات متقابلة في تعالق الملفوظات السردية؛ بما يجعل من هذا التعالق سلسلة من الحالات المتعلقة بالكينونة، وسلسلة التحولات التي تعود إلى الفعل وردة الفعل، تتجاذب فيها نعوت متوازية بين صراع الرغبات في صورتي سلطان ومريديه، وبنية تفسخ الرغبات في صورة «زهية»، لبلوغ مقولة الصراع على القيمة في ملفوظات مشتركة، يتقاسمها تفشي الفساد، والبحث عن العدالة الاجتماعية، وهو ما يبرر حالة التوازي بالتضاد بين طرفي الفساد، ومايقابله في طرف البغية في أيقونة «زهية» على المستوى الدلالي، على الرغم من تقابل هذين المتوازيين تقابلا ضديا في النسق الدلالي، وقد توصل السرد إلى تحقيق ذلك في التوازي الأول الماثل في شخصية سلطان زعتر، ويقابله في الشق الثاني المجتمع الماثل في المصلحة الذاتية لمعظم الشخصيات في علاقتها بالتبعية لسلطان، بالنظر إلى ما تحمله من صفات مشتركة، عِمادها التماس مكاسب واهية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه السعي وراء «ظاهرة الإشعاع الكايد»؛ في حين يأتي التوازي الثالث مع شخصية «زهية» بوصفها المحور الاستبدالي لترسيخ علاقة التآصر بين الإنسانية.

واستنادا إلى ذلك، فإن علاقة الشخصيات المتباينة في رواية سلطان وبغايا تحتاج إلى وقفة متأنية، من حيث البعد الإنساني؛ ولأن السرد يركز على شخصية «سلطان

(1) ينظر، محمد منادي إدريسي، الشرّ المتجذِّر عند كانط: طبيعته وأصله وسبل التخلص منه، مجلة يتفكرون، الصادرة عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، عدد 12، عن
KANT, La religion dans les limites de la seule raison, AK VI, 50–51; trad. Alain Renaut, Paris, Puf, 2016, PP. 89–90.

(2) الرواية، ص 202، 203

زعتر» في الغيبة؛ الحاضر في السرد، فإنه يتمتع بالتماهي مع واقع أطياف السلطة، في حين تتماهى الشخصيات الأخرى مع الواقع الموبوء، وهو ما ركز عليه السرد؛ ومع ذلك فإن رجاحة عقل الكاتبة «هدى عيد» تبدو موفقة في إعطاء العدالة مكانتها، والحقيقة دورها؛ بما يمكن تحققه مع شخصية «زهية»، وكأن الكاتبة تريد هنا أن تسجل أن لا قيمة للحياة من دون ضريبة، وأن بذرة الإنسانية قائمة لا محالة في الواقع الممشوج بين الخير والشر بالحالة المجسَّمة في الواقع، وهي الرؤية التي شخصتها رواية «سلطان وبغايا»، بطرائق فنية شاملة، ومتكاملة، وبأسلوب سردي موضوعي، يحضر فيه المتلقي بوصفه راويا شاهدًا، ينظر إلى الحالات والتحولات التي تصاحب السرد كونها نعتا لنموذج التجلي الذي يرسم الواقع بمرآة عاكسة، توجب استخراج البنى الدلالية المتوازية توازيا ضديا، يختفي داخلها الدال القرائني وما يتوارى في عمقه. والحال هذه، أن أي عمل أدبي لا تكتمل فعاليته إلا بمشاركة فعّالة من قارئ حصيف، وذلك عبر حل الشفرات المستخلصة، التي غالبا ما توظف في النصوص بقصد التمويه والانحراف عن المعنى الحرفي لها، وهو ما يتوافق مع القراءة الدلالية الاستبطانية المفتوحة، كونها لا تنتهي إلى معنى محدد، ولكنها تعكف على ملاحقة المضمر الدلالي في جميع تمظهراته ومستوياته الترميزية والتشفيرية، وهكذا فإن سبل الكشف عن صيغ معارج المعنى – في سلطان وبغايا – غير محددة، كما أنها قابلة للتحول أو الإخفاق، على اعتبار أن كل نص له متصور ذهني غائب، أو وهمي في وعي المتلقي، يتشكل لديه من تراكم الخبرات القرائية، والمخزون الذاكري، وما تضيفه قدراته الإبداعية من خلق وابتكار[1]، وهو ما يمنحه نص «سلطان وبغايا» فيما يطابق الكناية بالانزياح، على وفق العلاقات المجازية؛ المتضمنة في مضمرات النص بالتَّكنية.

(1) ينظر، عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي، دار صفحات، سوريا، 2012، ص 146

قائمة المصادر والمراجع

أولا – المصادر

سلطان وبغايا، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2015

ثانيا – المراجع

اشفيتسر، ألبرت، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، بيروت: دار الأندلس، 1983م

جميلة بكوش ، معالم النقد الثقافي في الجزائر، دار خيال – الجزائر– 2021

جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة، فلاح رحيم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2014

جيرمي ريفكين، عصر الوصول، ترجمة، صباح صديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، 2009

دروس ميشيل فوكو (1970 – 1982)، فوكو، محمد ميلاد، دار توبقال للنشر، 1988،

سيجموند فرويد، ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة، إسحاق رمزي، دار المعارف، مصر، 1980

عبد القادر فيدوح، معارج المعنى في الشعر العربي، دار صفحات، سوريا، 2012

هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة، ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، 2006، ص109،108

ثالثا – الدوريات

آمنة بلعلى، تمثيل الفعل الأخلاقي في رواية سلطان وبغايا لهدى عيد، مجلة الحداثة ، بيروت، السنة الثالثة والعشرون ع 175، 176 ربيع 2016،

محمد منادي إدريسي، الشرّ المتجذِّر عند كانط: طبيعته وأصله وسبل التخلص منه، مجلة يتفكرون، الصادرة عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، عدد 12